

لوي ألتوسير والقراءة العلمية للماركسية
Louis Althusser and the Scientific Reading of Marxism

الدكتورة خيرة بورنان¹، جامعة المسيلة – محمد بوضياف

Kheira Bourenane, University of M'sila

bourenanekh77@gmail.com

تلويخ الاستلام: 2017/10/09 تاريخ القبول: 2017/12/23 تاريخ النشر: 2017/12/30

ملخص:

إذا كانت السمة الغالبة على الفلسفة الحديثة هو تعدد أنساقها، فإن السمة الغالبة على الفلسفة المعاصرة (الفرنسية) هو تعدد مناهجها من جهة، و نزوعها نحو قراءة و إعادة قراءة التراث الفلسفي خاصة الحديث منه وفقا لهذه المناهج، يبدو هذا الأمر واضحا لدى الفلاسفة البنيويون. من ذلك قراءة لوي ألتوسير لكارل ماركس قصد اضعاف الصفة العلمية على الماركسية بعد أن استحالت إلى نزعة انسانية /تاريخية وتحولت إلى إيديولوجيا على يد أولئك الذين لم يحسنوا قراءة ماركس و قراءة رأس المال.

الكلمات المفتاحية: البنيوية، المناهج، الماركسية.

Abstract:

If the defining characteristic of modern philosophy is its multiplicity of systems, then the defining characteristic of contemporary (French)

¹ - المؤلف المرسل

philosophy is its multiplicity of methodologies, on the one hand, and its tendency to read and reread the philosophical heritage, especially the modern one, according to these methodologies, on the other. This is evident among structuralist philosophers. For example, Louis Althusser's reading of Karl Marx aimed to scientificize Marxism after it had been transformed into a humanistic/historical tendency and then into an ideology by those who had misread Marx and Capital.

Keywords: Structuralism, Methodology, Marxism

مقدمة:

إذا كانت السمة الغالبة على الفلسفة الحديثة هو تعدد أنساقها، فإن السمة الغالبة على الفلسفة المعاصرة والفرنسية منها على وجه التحديد هو تعدد مناهجها من جهة، ونزوعها نحو قراءة وإعادة قراءة التراث الفلسفي خاصة الحديث منه وفقاً لهذه المناهج.

يبدو هذا الأمر واضحاً لدى الفلاسفة البنيويون. من ذلك قراءة ميشيل فوكو لبنية الفكر الغربي قصد الكشف عن الوجه السالب للحدثا الغربية. وقراءة جاك لاكان لفرويد التي رام من خلالها تحرير المتن الفرويدي مما لحق به من تحريف وتشويه جراء القراءات الخاطئة والتبسيطية، ومن ذلك أيضاً قراءة لوي ألتوسير للماركسية والثابت أن البنيوية غداة نشأتها بدت كأنها المنهج العلمي الذي سينقذ العلوم الإنسانية مما آلت إليه، وأنها الخيار الأنسب للعديد من الفلاسفة الذين يشكلون ما يعرف في تاريخ الفلسفة (الفرنسية) بالبنيوية يتعلق الأمر بستروس، فوكو، ألتوسير ولاكان.

ولهذا جاءت بواكير كتاباتهم ترسيخا لمبادئ البنيوية ولعلم اللغة البنيوي، بدا ذلك جليا في «البنى الأولية للقرابة» لستروس و«تاريخ الجنون» و«الكلمات والأشياء» لفوكو، و«قراءة رأس المال» لألتوسير و«كتابات» لجاك لاكان. والمشارك في هذه المؤلفات أن حقيقة الإنسان بات يشكلها المسكوت عنه Le nom dit أو خطاب الصمت. وقد آل هؤلاء الفلاسفة على أن يجعلوا هذا الصمت منطوقا واللاوعي واعيا وأن يخرجوا العلوم الإنسانية من مرحلة ما قبل العلمية إلى مرحلة العلمية. وهدف هذا المقال تحليل الأطروحة الألتوسيرية المتعلقة أساسا بطبيعة العلاقة بين الماركسية والبنيوية، عبر قراءة ألتوسير لكارل ماركس. كل ذلك من خلال الإشكال التالي: على أي نحو قرأ لويس ألتوسير كارل ماركس؟ وهل تمكن ألتوسير من اضماء الطابع العلمي من خلال قراءة ماركس قراءة بنيوية؟

وقصد الإجابة هذا الإشكال سنركز على العناصر الآتية:

- البنيوية

- تاريخ العلاقة بين البنيوية و الماركسية

- ألتوسير والقراءة التشخيصية لرأس المال

أولا: البنيوية

الحديث عن البنيوية هو بوجه من الوجوه حديث عن تيار فكري معاصر رغم حداثة نشأته إلا أنه تغل وبشكل كبير في الفلسفة والعلوم

الإنسانية والأدب والفن وغيره، تغلغلا يوحى بأن البنيوية قد أصبحت واجبا فكريا يتوجب على كل مفكر تبنيه بالدفاع عنه أو تفنيد دعاويه. وعلى الرغم من أن البنيوية بلغت أوج ازدهارها في الستينيات من القرن العشرين، ورغم الطابع الثوري لها إلا أن نشأتها لم تكن كذلك ومن الخطأ الاعتقاد بأنها تقتصر إلى وجود جذور (أصول) عميقة ضاربة في الماضي وفي المذاهب الفكرية والفلسفية السابقة لهذا القرن. إن مقولة البنية وكثير من الأفكار الأساسية التي تكمن وراء البنية كانت موجودة بل وحتى شائعة في الفكر الغربي في كثير من كتابات القرن التاسع عشر، وهذا ما يؤكد الفيلسوف الفرنسي ذو التوجه الماركسي، **لوسيان سيف Lucien Sève** (1926-؟) ذلك أن الأبحاث الرئيسية التي تعتبر أساس البنيوية المعاصرة يرجع معظمها إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى. في مجال اللغويات يمكن الإشارة إلى أعمال **دي سوسير**، وفيما بعد إلى أعمال **تروبتسكوي** و**ياكسون**، وفي مجال علم النفس إلى أعمال منظري الجشطالت، و من ناحية أخرى إلى أعمال **فرويد**. وفي الحقل الفلسفي يمكن الإشارة إلى **هوسرل** وأعمال **باشلار** اللاحقة حول قضايا الفلسفة للعلم¹.

ويتفق البنيويون، على أفكار أساسية تشكل مبادئ البنيوية، ويأتي على رأس هذه المبادئ مبدئين اثنين: يتعلق **المبدأ الأول**: بإنكار الذات ورفض النزعة الإنسانية من خلال قولهم بأن الفاعل الحقيقي هو

البنية (النسق) وليس الإنسان. أما **المبدأ الثاني**: فيتعلق برفض النزعة التاريخية من خلال قولهم بأولوية التزامن على التعاقب. إن هذين المبدأين ورغم أهميتهما عند البنيويين فإنهما يشكلان نقطة الارتكاز للانتقادات التي طالت البنيوية.

لكن، وإن يكن من اليسر الاتفاق على أصول البنيوية ومبادئها، فإن جدلا حادا يحتدم بشأن طبيعة البنيوية: فهل البنيوية مجرد مذهب فلسفي يضاف إلى سلسلة المذاهب الفلسفية المعروفة عبر تاريخ الفلسفة، أو هي منهج علمي يراد من خلاله دراسة العلوم الإنسانية دراسة علمية تضفي إلى نتائج تضاهي في دقتها نتائج العلوم الطبيعية؟ بمعنى أوجز: هل البنيوية أداة علمية أم مذهب فكري فلسفي، وإيديولوجي كباقي الفلسفات والإيديولوجيات الأخرى؟

سؤال يطرحه كل من يبادر بدراسة البنيوية، ولن يجد كبير عناء في العثور على الإجابة ذلك أن مواقف المفكرين والدارسين لها تباينت تباينا واضحا؛ من لا يرى في البنيوية إلا منهجا، وليس أكثر من منهج، وأنها لا يمكن أن تكون مذهباً فلسفياً، فلا يمكننا الحديث عن البنيوية كما نتحدث عن الوجودية « لأن البنيوية ما هي إلا منهج بحث وطريقة معينة يتناول بها الباحث المعطيات التي تنتمي إلى حقل معين من حقول المعرفة بحيث يخضع هذه المعطيات فيما يقول البنيويون إلى المعايير العقلية»². ويبدو هذا الأمر غاية في الوضوح عند

الأنثروبولوجي البنيوي كلود ليفي ستروس إذ يعلن منذ البداية أن البنيوية ليست بأي حال من الأحوال فلسفة وإنما هي مجرد منهج للبحث العلمي يقول: «أبحاث البنية لا تطالب بمجال خاص بين وقائع المجتمع؛ إنها تؤلف بالأحرى منهجا خاصا قابلا للتطبيق على مسائل إثنولوجية متنوعة وتنتمي إلى أشكال تحليل بنيوي مستعملة في مجالات أخرى»³. ومعنى هذا أن البنيوية توجه منهجي داخل العلوم الطبيعية والإنسانية، يهدف الى تحليل البنيات الأساسية للموضوعات والأشياء. وبالنظر إلى التاريخ العلمي للبنيوية، يقرر جان بياجيه أن «الدرس الذي يجب أن نستخلصه من هذا التاريخ هو أن البنيوية لا يمكن أن تشكل موضوعا لعقيدة أو لفلسفة وإلا لأمكن تجاوزها بسرعة بل تشكل بالضرورة طريقة مع كل ما تنطوي عليه هذه اللفظة من التقنية ومن الالتزامات والشرف الفكري»⁴، فالبنيوية منهج علمي. وتتميز البنية حسب بياجيه بثلاثة خصائص هي: الكلية، التحولات الضبط الذاتي⁵. وهذه الخصائص تعد بمثابة القانون العام الذي يحكم عمل مختلف البنى مهما كانت طبيعتها.

وفي مقابل هذا الطرح هنالك من لا يرى في البنيوية إلا الجانب النظري معتبرا إياها مجموعة من النظريات في اللغة والاجتماع والفلسفة وهي بهذا المعنى مجرد نظرية إيديولوجية تضاف إلى باقي نظريات وايديولوجيات القرن العشرين. وفي هذا الصدد لا يتردد ريمون بودون

في رفضه للمنهج البنيوي ومؤكدا على الجانب النظري فقط، ذلك أن البنيوية منظورا أكثر منها طريقة، والسبب في رأيه يعود الى أن الثورة المنهجية التي تدعي البنيوية القيام بها كانت موجودة سابقا في العلوم الطبيعية والاجتماعية كعلم الاجتماع والاقتصاد.

وبعيدا عن هذا الجدل حول طبيعة البنيوية يمكن القول مع محمد سبيلا أن « البنيوية تمثل المحاولة الجادة لاتخاذ موقف علمي وإبستمولوجي جديد يخرج "العلوم" الانسانية من مرحلة ما قبل العلمية إلى مرحلة العلمية». وهي محاولة لا تخلو من ملامح مذهبية وفلسفية معينة. ومن الفلاسفة البنيويين الذين حاولوا اضعاف الموصوف المنهجي ومن ثم العلمي على الماركسية نجد لويس ألتوسير.

ثانيا: تاريخ العلاقة بين البنيوية والماركسية

إذا كانت علاقة البنيوية بالوجودية اتسمت بالتوتر وصل حد المعارك الفكرية بين أقطاب الفلسفتين (سارتر/ ستروس)، فإنَّ موقف البنيوية من الماركسية بحسب لوسيان سيف موقف ملتبس: فمن ناحية تعتبرها وثيقة الصلة بها أو في الأقل سلفها، ومن الناحية الأخرى ترفضها بوصفها الفرعالميت في شجرة التسلسل البنيوية⁶.

لكن ما هو واضح وضوحا لا لبس فيه هو أنَّ البنيوية اعتبرت في البداية قريبة من الماركسية، فمفهوم البنية في حد ذاته ليس جديدا على الماركسية، ويمكن القول بحق أنَّ ماركس أول من أثبت قيمة المنهج

البنوي في تحليله للظواهر الاقتصادية للمجتمع الرأسمالي، في منتصف القرن التاسع عشر، قبل استخدام هذا المنهج في علم اللغات وعلم أصول السلالات البشرية والتحليل النفسي.

والثابت أن أقطاب البنيوية وأولهم **كلود ليفيستروس** لا ينكرون استعارتهم ذلك المفهوم من الديالكتيك الماركسي، حتى بدا في نظر كثير من المثقفين وكأنّ البنيوية أصبحت الشكل الجديد الدقيق لمعانقة المبادئ الماركسية الأصلية في ظل أعمال بعض كبار المفكرين والباحثين، مما جعل مبادئهم تبدو كما لو كانت صياغة علمية حديثة للماركسية التي تنزع الى التخلص مما شابها تقليدياً من السلطة الطاغية للحكم الحزبي. وفي الواقع إعلان نهاية الفلسفة باسم علوم الإنسان، والنقد الجذري لمجمل الايديولوجيا الذاتية للإنسانية على أساس تحليل الظروف الموضوعية لكل حقيقة إنسانية كانت دائماً مبادئ ماركسية، قبل أن تكون بنيوية، هذا ما وجده **ألتوسير** عند إعادة قراءته لرأس المال⁷.

لكن لماذا لا يعتبر البنيويون أنفسهم مجرد ماركسيين، ولماذا يصرون على تسمية المنهج الذي يزعمون أنهم استعاروه من **ماركس** ، بنيويا وليس ديالكتيكيا؟

إنّ رفض البنيوية التماثل مع المادية الديالكتيكية ليس مجرد قضية مصطلحات أو حفاظ على مكانة نظرية، بل تعبير عن اختلافها الجوهرى عن الماركسية، يبرز هذا في ما يلي:

البنوية لا تؤكد على مجرد الأولوية المنهجية للتزامن على التعاقب بل تفصل جوهرهما بشكل أساس بحيث تستبعد أية وحدة داخلية. وفي الوقت الذي تقر فيه بتطور البنى المختلفة مع الزمن، لا تتناول ذلك كعملية تنعكس في المستقبل، بل كحركة تتجه نحو الكمال، ومن ثم الركود. فالتاريخ بدلا من أن يكون نقطة انطلاق إلى ما لا نهايةما هو إلا نهاية، إنه كابح أكثر منه محرك. وحيثما تعترف البنوية بحدوث تغيرات في البنى فإنها تعتبرها مجرد «انفجار للبنية» ناجم عن اصطدامها بظروف خارجية. وهذا يتجاهل القوانين الداخلية للتطور التاريخي.

مقارنة بالفهم الديالكتيكي للبنية والتاريخ في وحدتهما العميقة، تؤكد البنوية التي تتجاهل هذه الوحدة على الثبات النسبي للبنى. وهذا يتركها تدور في حلقة مفرغة تتذبذب بين البنى التي لا تأريخ لها، والتاريخ الذي لا بنى حقيقية له. في المقابل تقدم الماركسية فهما عقلانيا عميقا لوحدة البنية والتاريخ وتكشف عن القوة الدافعة لكل العمليات التي هي التناقض الديالكتيكي، وهو أمر غريب على البنوية، فهي لا تقر إلا بتجاوز للحقائق يكمل بعضها بعضا. وهي بتجاهلها للتناقضات الديالكتيكية، تلك الحلقة الموصلة بين التاريخ والبنية، تقع في مأزق المثالية الأنثربولوجية واعتباطية الوصفات الإبستمولوجية.

-تتظر البنيوية إلى الأبنية الشاملة على أنها أنساق لا زمنية منتظمة ذاتيا، في حين أن الماركسيين ينظرون إليها على أنها أنساق تاريخية مشحونة بالتناقضات.

وإذا كانت الماركسية قد وضعت حدا للأفكار الميتافيزيقية المجردة عن الطبيعة الإنسانية، فإن البنيوية تتجاهل في الواقع الطبيعة الاجتماعية للإنسان وتحول العلوم الإنسانية نحو مملكة التأمل التجريدي والميتافيزيقي⁸. وهذا هو ما منعها من فهم المعنى الحقيقي للتاريخ وبصورة خاصة قوانين الصراع الطبقي.

رغم الاختلافات الجوهرية هذه، هناك من الفلاسفة من سعى إلى إيجاد عناصر بنيوية أصيلة في فكر ماركس خاصة، وبين هؤلاء لويألتوسير. والحقيقة أن هذا الفيلسوف لم يكن أول من سعى إلى ذلك فقد سبقه إلى ذلك مواطنه لوسيان سيباغ Lucien Sebag (1933-1965). ففي

مقدمة كتابه (البنيوية والماركسية) كشف عن سبب جمعه بينهما حيث قال: «في هذا المنظور طرحنا مسألة العلاقات بين الماركسية والبنيوية فالأولى لكونها اعتُبرت نظرية شاملة للظاهرة الاجتماعية، والثانية لكونها منهجا صالحا لتوضيح معقوليّة الوقائع البشرية»⁹. والمعنى

الذي أراد سيباغ إلحاقه بالماركسية أو تأكيد وجوده فيها هو الكلية **la totalité** المبدأ البنيوي المطبق وقتها في العلوم الإنسانية عامة وفي الأنثربولوجيا البنيوية خاصة.

ويبدو أنّ تحمس سيباغ لإثبات هذه الفكرة قد أدّى به إلى الانحياز إلى البنيوية وانكار عناصر أساسية في الماركسية، ومن ذلك رفضه للصورة التقليدية بين البنية التحتية والبنية الفوقية بوصف الأولى سببا مطلقا للثانية، في حين ومن منظور بنيوي تتحكم البنية العقلية بوصفها بنية شاملة، في البنية التحتية والبنية الفوقية على السواء.

وما يلزم عن ذلك أنّه لا أولوية مطلقة لعامل بعينه من عناصر البناء؛ فالعامل الاقتصادي هو مجرد عنصر من العناصر التي ينطوي عليها البناء وليس هو أساس البناء كله، وبالتالي لا أولوية له في مجال تفسير التاريخ، والعلاقات الاقتصادية وأنظمة القراية واللغة والأساطير تمثل كلا متكاملًا، مع امكانية احتفاظ كل عنصر بسماته المميزة التي يمكن استخلاصها بعملية ذهنية متعمدة⁹. وهناك تفاعل دائم بين هذه الميادين جميعًا، بحيث لا مجال للمفاضلة بين هذه العناصر.

كما ترتبط البنيوية بالماركسية من جهة ما يعرف في تاريخ البنيوية بال**بنيوية التكوينية** أو **التوليدية Génétique Structuralisme**، وقد نشأت هذه الأخيرة استجابة لسعي بعض المفكرين والنقاد والماركسيين للتوفيق بين أطروحات البنيوية في صيغتها الشكلانية وأسس الفكر الماركسي أو الجدلي، إذ عملت هذه المدرسة على إحياء المفاهيم الماركسية، كما تجلت في أعمال جورج لوكاش Georg Lukács (1885-1971) الذي طور النظرية النقدية

الماركسية، باتجاهات سمحت لتيار البنيوية التكوينية بالظهور على النحو الذي ظهرت به.

وقد استوعب الناقد الروماني الأصل والفرنسي الموطن

لوسيانغولدمان **Lucien Goldman** (1913-1970) الإرث النظري

لأستاذه **لو كاش** فيما يتعلق بمفاهيم البنية، والشكل، والنظرة الشمولية، ثم صاغ مقولات جعلها أساساً لدراسة أعماله، قصد الوصول إلى الكشف عن التصورات الفكرية التي تحملها، وعلاقتها ببنية تكوينها. كما أفاد **غولدمان** أيضاً من أطروحات **بياجيه**، حيث استعار منه «مصطلح البنيوية التكوينية»¹⁰ وجعله كمقابل للبنيوية الشكلية.

ويتحدد مفهوم البنية في الاتجاه البنيوي التكويني بـ:

تشتط البنية الكلية والتحول والتكون.

تقوم البنية باعتبارها مجموعة، على نوع من الضبط الذاتي.

لا يمكن إدراك البنية إلا ضمن تكونها وتطورها، معنى هذا أن البنية لا تتنافى والتغير بعكس البنية في مفهوم **ليفى ستروس** وغيره من البنيويين الصوريين التي تفرض الثبات.

تقوم البنية في المفهوم التكويني، على جدلية الفهم والتفسير

والتزامن والتعاقب¹¹.

من خلال هذه الخصائص يظهر أن القاسم المشترك بين البنيوية

التكوينية والبنيوية الشكلية هو مفهوم البنية، وأن جذر الخلاف بينهما هو

أن البنيوية الشكلية تلغي فاعلية الذات وتلغي التاريخ، وتُحل هذه البنيوية محل الذات المملغة نسقا مجردا متعاليا بلا ذات، إلى درجة تصبح معها البنية نظاما شكليا منغلقا على نفسه، نظاما ينطوي على تحولات داخلية لا تخضع لأي شيء سوى هذا النظام، ولا تتصل بأي شيء خارجه. وهذا ما نجده عند لوي ألتوسير.

ثانيا: ألتوسير والقراءة التشخيصية لرأس المال

يوصل لوي ألتوسير قراءة الماركسية قراءة بنيوية، و« كما كانت العودة إلى فرويد عند لاكان أكثر من مجرد قراءة حرفية لنصوص واضح التحليل النفسي، فإنّ قراءة ماركس أيضا قد جاءت أكثر من مجرد تعليق لفظي على كتابات صاحب المادية الجدلية أو المادية التاريخية»¹²، فقراءة ألتوسير الجديدة تتطوي - حسب ريمون آرون - على وعد بإحياء الماركسية واكتشاف الخطاب الماركسي العلمي من خلال قراءة ماركس قراءة بنيوية¹³. مستفيدا في ذلك من التقدم الذي أحرزته بعض العلوم الإنسانية مثل: التحليل النفسي وعلم اللغة البنيوي والنتائج التي توصلت إليها، وهي أمور لم تُنح لمعظم الشراح والمفسرين الذين سبقوه.

إلا أن إعادة القراءة هذه لم تكن لتتم بالصورة لولا اعتمادها، على مجمل الدرس الذي كانت تبسطه أعمال جورج كانغلاهيم وميشيل فوكوفي تاريخ العلوم، و من قبلهما باشلار وكافاياس¹⁴، وقد أعطى ذلك

لتحليلاته أبعادا جديدة وأكسبها درجة عالية من العمق والأصالة، خرجت بها عن أن تكون مجرد شروح وتفسيرات. وعلى طريقة اللغويين البنيويين وجد ألتوسير في نفسه القارئ اللامع أو الممتاز¹⁵ القادر على النفاذ في نص ماركس، والقادر على رؤية من هو ماركس على الحقيقة.

لكن ما هي الأسباب الأساسية التي دفعت ألتوسير صوب هذه القراءة؟ يلخص عمر مهيب ذلك في سببين: السبب الأول، هو شعوره بالبوؤس النظري الذي تعانيه الفلسفة الماركسية نتيجة انصراف الماركسيين الفرنسيين إلى السياسة، ونتيجة موقف الفلسفة الجامعية الفرنسية من الماركسية، فهذه الفلسفة على حد قول ألتوسير: « دفنت ماركس في تراب الجيف cadavres خلال قرن تقريبا »¹⁶. أما السبب الثاني، فيتمثل في الرد على النزعة الإنسانية التي روج لها بعض الماركسيين الفرنسيين أمثال جارودي، والتي رأى فيها ألتوسير إفقارا للماركسية، وتجاوزا لطابعها العلمي¹⁷.

أما السبب الثاني، فيتعلق بمحاولة ألتوسير إحداث القطيعة بين الخطاب الماركسي العلمي والنزعة الإنسانية، كما تجلت في قراءة روجيه غارودي.

أدرك ألتوسير أن المشكلة تتعلق بأعمال ماركس نفسه، حيث توجد اختلافات نظرية بين الأعمال الفلسفية المبكرة له وأعماله المتأخرة ويخطئ في نظره من يعتقد أن ثمة اتصالا لا ينقطع بين هذه الأعمال

وكأن اللاحق منها يرتبط بالسابق ضرورة. لقد أخطأ في نظره أصحاب
نظرية المصادر عندما اعتقدوا أن مؤلفات **ماركس** الأخيرة ومنها رأس
المال يكمن جوهرها الحقيقي في الكتابات المبكرة، فهي المقدمة
الضرورية لفهم النص الماركسي المتأخر. وبالمثل أخطأ أصحاب **نظرية**
التوقع، لما اعتبروا مؤلفات الشباب غير ناضجة أو أنها المرحلة الجنينية
لمؤلفات النضج¹⁸.

وإذ يرفض **ألتوسير** هاتين النظرتين بسبب طابعهما المثالي (*)، فإنه
يؤكد وجود قطيعة بين هذه أعمال **ماركس**. ووفقا لهذا قسم **ألتوسير**
مسار **ماركس** الفكري الى مرحلتين كبيرتين: مرحلة **الخطاب**
الإيديولوجي (قبل 1845) وهي مرحلة الشباب التي كان فيها متأثرا
بالفلسفة الكلاسيكية الألمانية، ومرحلة **الخطاب العلمي** (بعد 1845)، وهي
مرحلة الكهولة والنضج التي قطع فيها **ماركس** مع ماضيه الإيديولوجي
ليبلور مقاربة علمية تبدو بصورة واضحة في كتابه «رأس المال»¹⁹، هذا
النص بالذات يحتاج إلى إعادة قراءة.

وفي إطار مشروعه لإعادة قراءة **ماركس**، وجد **ألتوسير** نفسه مضطرا
إلى إعادة النظر في مفهوم القراءة ذاته ماذا نقراً؟ أدى به ذلك إلى أن يميّز
بين نوعين من القراءة: أما القراءة الأولى، يصفها **ألتوسير** تارة بـ **القراءة**
الحرفية lecture littérale وتارة أخرى بـ **القراءة البريئة lecture**
innocente، فينعت بها **ألتوسير** مؤلفات الشباب عند **ماركس**، حيث

كان هذا الأخير «يقراً حضور الماهية "المجردة" في وجودها العيني "الشفاف"»²⁰.

ينقلب التوسير على هذا النوع من القراءة الساذجة لأنها ترى في الخطاب تعبيراً عن الحقيقة الأولى، كأنها تقرأ الحقيقة في كتاب مفتوح كما كان جاليلو يقرأها في كتاب الطبيعة الكبير ذلك الكتاب الذي يمثل الخطاب الصامت الذي يتألف من مربعات ومثلثات ودوائر²¹. إنَّ هذا النوع من القراءة لا يزود القارئ بالمفاتيح الحقيقية لفهم روح النص، بل إنها تخطئ فهم حتى هذه النصوص المكتوبة.

أما القراءة الثانية: «القراءة التشخيصية»

Symptomale Lecture²² التي يجب أن تُقرأ الماركسية وفقاً لها فهي قراءة فلسفية، نقدية متشككة تتهم المباشر وترفض البديهيات إنها قراءة تنحو إلى تتبع ما في الخطاب من فجوات وبياضات وأماكن يظهر فيها خطاب ماركس وكأنه خطاب الصمت **le discours du silence** على حد قول التوسير²³.

إنَّها قراءة تبحث في لا وعي الخطاب، في صمته وتناقضاته، لا شيء إلا لأنه لا توجد قراءة بريئة، بل أكثر من ذلك إنها قراءة تطالب بحقها في الخطأ. ويرى التوسير أنه منذ فرويد بدأنا نتهم السمع والكلام وبدأنا نتساءل عن القصد منهما وأخذنا نكتشف خطاب اللاوعي²⁴.

ومن ثم يجعل التوسير من هذه القراءة الإستيمولوجية وسيلة للحكم على نصوص ماركس. ونص «رأس المال» - وكجواب عن سؤال: ماذا نقرأ؟ - هو الذي يستحق القراءة من جديد، إذ يتساءل التوسير: «كيف نتثبت من السمة المختلفة لموضوع رأس المال من دون قراءة نقدية إستيمولوجية»²⁵. لقد قرئ الكتاب من قبل علماء الاقتصاد والمؤرخين وحتى المناطق، لكنه لم يقرأ من قبل فلاسفة ومنظرين يكشفون عن إشكاليته النظرية الجوهرية.

وقراءة «رأس المال» من الزاوية الفلسفية تعني التساؤل عن المكانة التي يحتلها في تاريخ المعرفة، ومن هنا يطرح التوسير جملة من الأسئلة: هل أن رأس المال هو مجرد نتاج إيديولوجي من بين نتائج إيديولوجية أخرى؟ هل هو إعادة تشكيل هيجلي للاقتصاد الكلاسيكي (...) أو تحقيق لطموحات مثالية في «المسألة اليهودية» ومخطوطات 1844. هل أن رأس المال هو مجرد تكملة للاقتصاد السياسي الكلاسيكي؟ وهل يتميز رأس المال عن الاقتصاد السياسي فقط بموضوعه ومنهجه الجدلي الذي اقتبسه من هيجل؟ أم أنه نقلة إستيمولوجية حقيقية في موضوعه ونظريته ومنهجه²⁶.

إن نص «رأس المال» في نظر التوسير نص مكتف بذاته فهو لا يحتاج إلى قراءته قراءة صحيحة إلا العودة إلى متنه هو بالذات، وكأن خارج هذا النص لا توجد حقيقة. إنه النص العلمي، أو النص النموذج.

وهذا الامتياز النظري والإبستمولوجي يمنحه إمكانية أن يوفر المفاتيح لقراءة نصوص أخرى لماركس لا تتوفر على هذه الخاصية، من ذلك الإيديولوجيا الألمانية²⁷.

إنَّ أهم ما يميز قراءة ألتوسير لفلسفة ماركس عن غيرها من القراءات أنه يقرأ ماركس من خلال ماركس نفسه، وهذه القراءة النقدية تشكل في مجموعها دائرة²⁸ حسب وصف ألتوسير، أي أن هناك دائرة بين المبدأ الذي يقيم أسس قراءة ما وموضوعها.

إنَّ تمييز الخطاب العلمي عن الخطاب اللاعلمي، واحداث القطيعة الإبستمولوجية بينهما يقتضي القيام بقراءة ارتدادية فـ « بدلا من قراءة ماركس خطوة خطوة نقرأه ارتداديا أي انطلاقا مما نعرف أنه ماركسي لكي نؤسس ما هو ليس بماركسي حقيقة»²⁹، يعني هذا أن نقرأ الماضي (نصوص الشباب) من خلال الحاضر (نصوص النضج - رأس المال). وقد يفهم من هذا أن ألتوسير يقع في خطأ الدور على النحو الذي فهمت به إديث كرزويل منهج ألتوسير³⁰.

إن دفع هذا الانتقاد يأتي من ألتوسير نفسه، ذلك أن هذا الدور هو سمة هامة تميز كل فلسفة هي موضوع ذاتها، وتتكشف لنا من خلال دياكتيك الذهاب والإياب، من نص يزودنا بمفاتيح قراءته إلى قراءة نطبقها عليه من أجل الاهتداء إلى تلك المفاتيح نفسها في داخله³¹.

ونقطة البدء عند **ألتوسير**، هي نقد القراءات السائدة في تفسير الماركسية وخاصة تلك التي ترى فيها مجرد امتداد للهيكلية، فعلى أي نحو انتقد هذا التفسير الشائع؟ وهل عدل **ماركس** الجدل الهيجلي فأوقفه على قدميه بعد أن كان واقفا على رأسه؟

الواقع أن **ماركس** كما يفهمه **ألتوسير**، لم يكن مجرد ناقد لهيجل ومصحح له اكتفى باقتباس الجدل منه مع إيقافه على قدميه بدلا من رأسه، فعملية القلب هذه لم تكن إلا تعبيراً مجازياً، فبنية الجدل الماركسي مختلفة تماماً عن بنية الجدل الهيجلي، فالجدل الماركسي يتضمن اتحاد الأضداد، لكن هذا الاتحاد ينطوي على حتمية متعددة الجوانب (مركبة) والوحدة الشاملة عند **ماركس** مثلاً هي الاقتصاد ولذلك فهي وحدة بنيوية أما الجدل الهيجلي فيتضمن هوية الأضداد والوحدة الشاملة عند **هيجل** تتكون من كليات، وكذلك فهي وحدة مثالية. وأكد **ألتوسير** حتمية الجدل على نحو تتراكم فيه المتناقضات³².

وليس حرص **ألتوسير** على طرد شبح **هيجل** من الفلسفة الماركسية سوى مجرد محاولة لتحرير المادية الجدلية من كل آثار الايديولوجيا الألمانية خصوصاً في صورتها الهيجلية المثالية. إن **ماركس** لم يدخل يوماً العبادة الهيجلية ليخرج منها فالثابت أنه لم يكن هيجلياً في نضجه. والحديث على أنه كان كذلك في شبابه لا يزيد عن كونه مجرد حديث خرافة³³.

كما تنبه ألتوسير إلى المخاطر التي أهدقت بالماركسية في حقلي الفكر، والسياسة معا من جراء تكالب نزعتين على نخر جسدها بتأويلات فاسدة تقضي إلى ذات المأزق: ارتداد الماركسية إلى مسلك عقائدي وتبريري يتعارض وروحها النقدية والتحررية، وفلسفة مكتملة تتنافى وروحها الجدلية المتصلة بالبراكسيس والتاريخ. وهاتان النزعتان هما: النزعة الإنسانية، النزعة التاريخية. وتوجه من خلال مشروعه الإبيستمولوجي لنقد هاتين النزعتين وكشف تهافتها وفسادهما النظريين. إنَّ الجدل الذي دار حول أزمة النزعة الإنسانية في الفكر الغربي المعاصر، والذي دشنته الأطروحة الهيدجرية وواصلته أعمال البنيوية الفرنسية، تمخض عنه انقسام الماركسيين إلى اتجاهين، تجاذبا حقل التأويل والتأويل المضاد لما يفترض أن يكون الموقف الأصلي للماركسية من النزعة الإنسانية.

أما الاتجاه الأول، ويعد روجيه غارودي أحد أبرز ممثليه حاول إبراز البعد الإنساني في الماركسية، بالاستناد على الأعمال الفلسفية لمرحلة الشباب معتبرا (مخطوطات 1844) نقطة انطلاق فكر ماركس، ومرحلة حاسمة في تكوين النظرية الماركسية³⁴.

وبرزت مع الاتجاه الثاني محاولة ألتوسير لإعادة قراءة الماركسية في خطوط التماس مع الفلسفة البنيوية، وهي محاولة تميزت بخصوصية نظرية مكنتها من تجاوز الرهانات التقليدية للجدل الفلسفي حول مفهوم

الإنسان، بكشفها الصريح عن الرهانات السياسية التي توجد خلف كل نقاش حول النزعة الإنسانية.

وانتهى التوسير، من خلال انتقاداته تلك إلى أطروحة فلسفية جذرية تقول أن الماركسية تتحدد في المقام الأخير بوصفها علما يتعارض مع كل نزعة إنسانية « وبالفعل إذا ما فحصنا النصوص التي يمكن اعتبارها حاسمة في الفلسفة الماركسية، فإننا نرى أنه لا توجد فيها أية مقولة للإنسان (...) بل هي، على العكس من ذلك، قد أقيمت لكي ترفض مثل هذه التأويلات من حيث هي نوع من أنواع المثالية، ولكي تدعو إلى التفكير بشكل آخر مختلف كل الاختلاف»³⁵. الماركسية نظريا ضد النزعة الإنسانية؛ فهي لم تقم على أساس البحث والتنقيب عن جوهر الإنسان، ولم تسهم في تشييد مملكة الذات، بمعنى أن خطابها لم يحمل نزعة إنسانية تتحدث إلى البشر عن أشياء لا يقدرّون على حملها أو الإتيان بها.

لقد أحدث ماركس نقلة جذرية لحقل تحليله لمفهوم الإنسان؛ من الماهية الإنسانية إلى العلاقات الاجتماعية، ومن ثم فإن الاكتشاف الحاسم لـ ماركس على المستوى النظري يكون هو أن الإنسان لا يوجد إنما العلاقات الاجتماعية هي التي توجد، ليس ثمة ذات بل ثمة بنيات اجتماعية كما عرفت الماركسية في إطار الفهم السيئ - الخاطئ لها كواحدة من تلك النظريات التي انشغلت بفكرة التاريخ المستمر المتدفق

الذي يضم بين جنباته التعاقب وانتشار أنماط الحياة أو الانتاج. ولذلك قدم **ماركس** في نظر هؤلاء أقوى اعتراف بالتاريخانية **Historicisme** غير أن الأمر في نظر **التوسير** على النقيض تماما، ذلك « أن الماركسية من الناحية النظرية ضد التاريخانية، وضد النزعة الانسانية»³⁶ فهي في مرحلته الثانية نزعة مضادة للإنسان والتاريخ وهنا يتفق **التوسير** مع **البنويين** في موقفهم المعارض للتاريخ.

والسؤال الذي لا يزال يراود الكثيرين حتى الآن هو: إلى أي حد كان **التوسير بنويو** (***) رغم ماركسيته أو مع ماركسيته؟ الواقع أن عددا كبيرا من الكتاب يعتبرون **التوسير** مفكرا بنويو في المحل الأول، لقد شارك **البنويين** ولعمهم الشديد بفكرة البناء التي تستلزم اتخاذ موقف نقدي صريح منالزعتين الإنسانية والتاريخية، كما تبنى نظرتهم الى العلاقة بين الكل والجزء، وبين البنية والنسق، وظهر أثر ذلك بوضوح في تفسيره لبعض القضايا الماركسية الأساسية التي أسيء فهمها مثل مشكلة الحتمية الاقتصادية.

أراد **التوسير** تخليص الماركسية من أوهام الإيديولوجيا، والمثالية التي أغرقتها في متاهات البؤس النظري، ومن ثم اجتهد في ابراز الأطر العلمية والمنهجية التي تأسس عليها فكر **ماركس** في فترة النضج. وبلغ تقدير الدقة العلمية أقصى مداه لدى **جان لاكروا** حين كتب قائلا: «أعتقد أن التأويل الذي قدمه لنا **التوسير** لماركس غير قابل

للدحض»³⁷. كما توخى **ألتوسير** تفعيل الفلسفة الماركسية الفرنسية مدخلايها مرة أخرى في حوار مع بقية الفلسفة الفرنسية. ومع ذلك فمحاولته قراءة **ماركس** قراءة بنيوية جعلته يرى فيه ما لم يكتبه **ماركس** نفسه، وما لم يقصد إليه من كتاباته: **رأس مال** بلا جدل وتاريخا بلا بشر³⁸. إن **ألتوسير** لم يكتف بعدم السير في الاتجاه الرئيسي للماركسية وإنما خرج عليها تماما وسلك طريقا آخر بعيدا عنها كل البعد. ومهما تكن قيمة الانتقادات التي وجهت لـ **ألتوسير** من قبل الفلاسفة - لا يتسع المقام لذكرها - فإننا لا نستطيع أن ننكر القيمة المعرفية للمقاربة الألتوسيرية، حيث أثرت الماركسية وكشفت عن نواح مستورة فيها لم تكن متاحة من قبل بسبب القراءة الساذجة.

الهوامش:

- 1 - لوسيان سيف: البنيوية والماركسية، ص 11.
 - 2 - جون ستروك: البنيوية وما بعدها من ليفي شتراوس إلى دريدا، ترجمة، محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة (206) المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1996، ص 7.
 - 3 - كلود ستروس: الأنثروبولوجيا البنيوية، ج1، ص 327، 328.
 - 4 - جان بياحيه: البنيوية، ص 8، 9.
 - 5 - لوسيان سيف: الماركسية والبنيوية، ص 16.
 - 6 - نفسه، ص 35.
 - 7 - لوسيان سيف: المرجع نفسه، ص 35.
 - 8 - Lucien Sebag: Marxisme et Structuralisme, Payot, Paris, 1964. p12.
- «C'est dans cette perspective que nous avons posé la question des rapports entre le marxisme et le structuralisme, le premier étant compris comme théorie totalisante du phénomène social, le second comme méthode propre à mettre en évidence l'intelligibilité des faits humains».

9-Ibid, p141-142.

- 10 -ميجان الرويلي: دليل الناقد الأدبي، ص 76،77.
- 11 -لزواوي يغورة: المنهج النبوي، ص98.
- 12 -تكريا ابراهيم: مشكلة البنية، ص 191.
- 13 -إديث كرزويل: عصر البنيوية، ص 90.
- 14- Louis Althusser : Lire le Capital,T1, Éd : Maspero. Paris, 1973, p 13.
- عبر التفسير عن هذا الاعتماد في شكل دين نظري ، بقوله: «إنني أصر على الاعتراف بالدين، الصريح أو الضمني، الذي يربطنا بهؤلاء المعلمين الكبار في قراءة آثار المعرفة، الذين كانوا بالنسبة لنا بأشلال وكافاياس بالأمس، والذين هم بالنسبة إلينا اليوم كاتغلا يهم وفوكو». (ورد هذا القول في هامش الصفحة 13 قراءة رأس المال).
- 15 -إديث كرزويل: عصر البنيوية، ص 73.
- 16 -تقلا عن عمر مهيبيل: البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية، ط 3، 2010، ص213.
- 17 -عمر مهيبيل: البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية، ط 3، 2010، ص204، 205.
- 18 -هشام غصيب: هل هناك عقل عربي؟ المؤسسة العربية للدراسات و النشر — بيروت، دار التنوير العلمي - عمان ص149.
- (*) يظهر الطابع المثالي للنظريتين في الافتراضات الآتية:
الافتراض التحليلي: الذي ينظر الى كل نسق فكري نظري على أنه قابل للرد الى مجموعة العناصر التي تشكله، ثم التفكير في كل عنصر حسب خصوصيته وانعزاله عن غيره، فيسمح ذلك بمقارنته بمثيله في نسق أو منظومة أخرى.
الافتراض الغائي: ويتمثل هذا الافتراض في تأسيس محكمة سرية للتاريخ تمارس حكمها على الأفكار المقدمة اليها من موقع نص معين ووفق قواعد مستمدة من هذا النص. وهي تلجأ إلى حل النظم الفكرية المختلفة الى عناصرها وتقيس كل عنصر على حدى من منظور حقيقته الكامنة في هذه القواعد.
الافتراض المثالي: يتمثل الافتراض في اعتبار تاريخ الفكر قائما في ذاته ومولدا لذاته، وفي الاعتقاد بأنه مبدأ ادراك عالم الايديولوجيا يكمن فيه، بمعنى أن الايديولوجيا تدرك بذاتها ولذاتها. (عمر مهيبيل: البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ص 217، 218. هشام غصيب: هل هناك عقل عربي؟ ص 149، 150).
- 19 -عمر مهيبيل: البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ص208.
- 20- Louis Althusser : Lire le Capital,T1, p 13«Lire (...) la présence de l'essence "abstraite" dans la transparence de son existence "concrète"»
- 21- Louis Althusser : Lire le Capital,T1, p 13.

22- Louis Althusser : Lire le Capital,T1, p 28,29,34,36,106.

23- Ibid, p 106.

24- Ibid, p 12,13.

25- Louis A Althusser : Lire le Capital,T1, 90. «Comment fixer avec quelques nettété la spicifique différentielle de l'objet du capitale sans une lecture critique et epistemologique»

26- Louis A Althusser : Lire le Capital,T1, p11-12.

27 بول ريكور: محاضرات في الإيديولوجيا و اليوتوبيا، ترجمة، فلاح رحيم، دار الكتاب الجديدة، ليبيا، ط1، 2002، ص185.

28- Louis A Althusser : Lire le Capital,T1, p88.

29 بول ريكور: محاضرات في الإيديولوجيا و اليوتوبيا، ص185.

30 إديث كرزويل: عصر البنيوية، ص 75.

31 زكريا ابراهيم: مشكلة البنية، ص197.

32 إديث كرزويل: عصر البنيوية، ص 79.

33 زكريا ابراهيم: مشكلة البنية أو أضواء على البنيوية، سلسلة مشكلات فلسفية (8)، مكتبة مصر - دار مصر للطباعة القاهرة، 1976، ص 200.

34 ووجيه غارودي: الماركسية، ترجمة، محمد الأمين بحري، دار الحكمة، الجزائر، 2009، ص101.

35 لوي ألطوسير: ماركس والنزعة الإنسانية، ترجمة، محمد سبيلا، <http://mohamed-sabila.com/nossos4.html>

36- Louis Althusser : Lire le Capital,T1, p150.

(*) ما تجدر الإشارة إليه أن ألطوسير شأنه شأن لاكان وفوكو ينكر صلته بالبنيوية حيث يقول: « إن

الاتجاه العميق الذي يسود كل كتاباتي - على الرغم من الالتباسات اللفظية الراجعة إلى استخدام

بعض المصطلحات - لا يرتبط بأيديولوجيا البنيوية، ونحن نأمن أن يضع القارئ هذا التقرير - أو

التحذير - موضع الاعتبار، مع العمل على التحقق من صحته، وبالتالي قبوله أو التسليم

به»(زكريا ابراهيم: مشكلة البنية، ص191. Louis Althusser : Lire le Capital,T1, p6).

37 ووجيه غارودي: البنيوية فلسفة موت الإنسان، ترجمة، جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت - لبنان ط3، 1985، ص104.

38 ووجيه غارودي: البنيوية فلسفة موت الإنسان، ص89 .